الانتصاف للحريري(ت 515 هـ) من شهاب الدين الخفاجي (ت 1069 هـ) في درّة الغوّاص في أوهام الخواص

أ. م. د. فائزة عباس حميدي الإدريسي
معاون عميد كلية التربية للبنات / جامعة تكريت
العراق

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وعلى كلّ من اقتفى أثره واتبع هداه ، أما بعد:

فقد كان العلماء ولا يزالون ينبهون على الأخطاء اللغوية يسيرها وكبيرها ، وذلك في أثناء كتبهم ، فتضافرت جهود أهل العلم والفكر ، وأُولي الخبرات النادرة في هذه الأمة العظيمة على خدمة اللغة العربية من أنحاء شتى متقاربة حينًا ومتباعدة حينًا ؛ لأنها لغة القرآن الكريم مصدر التشريع والتنظيم الكافلين خير الناس قاطبة ، ونمَتْ هذه الجهود المباركة فيما نمى _ علوم اللغة العربية _ من نحو وصرف ولغة وبلاغة وفقه لغة وغيرها .

ووجد الدارس في علوم اللغة عند العرب تنوعاً وغنى ، ويلاحظ أن بعض الأفكار التي تُستقى ينبغي أن تُكشف للناس كشفاً علمياً منصفاً كي تأخذ مكانها .

ويُعد كتاب درّة الغوّاص في أوهام الخواص مصدراً أساسياً لمؤلفات العديد من العلماء ، إذ أُلِفَتْ شروح وحواشٍ عدة طافحة بالتنبيه على ما ادعوه من أوهام الحريري وأغاليطه في كتابه درّة الغوّاص ، ومنها شرح درّة الغواص لشهاب الدين الخفاجي .

وبعد التدقيق والتمحيص في المسائل اللغوية التي عدَّها العلماء أوهاماً ، ورأوا أنَّ قلم الحريري زلَّ في مواضع من كتابه ، وهو المتمسك بمبدأ تنقية اللغة العربية من الأخطاء اللغوية ورفضه قانون تطور اللغة. وجدنا أن نردّ على بعض مَنْ تصدوا لتخطئة استعمالات الناس ، والوقوف وسطاً بين الحريري في درّة الغواص في أوهام الخواص وشهاب الدين الخفاجي في شرحه درّة الغواص في أوهام الخواص، لذلك جعلنا هذا البحث لتصحيح ما وصف بالخطأ ، وذلك بالرجوع الى كتب اللغة و المعجمات ، وتوثيقها ، فالبحث هو إزالة لصفة الخطأ عن بعض ما خُطِئ .

وتكمن أهمية البحث في أنه يعالج مسائل لغوية تتعلق بسلامة اللغة العربية ، إذ سبق لنا أن نشرنا بحثاً عنوانه: لحن العامة لأبي حاتم السجستاني(ت 255 هـ) (جمع ودراسة وتحقيق)، وأشرنا فيه الى حركة التصويب اللغوي ، وأهم الكتب المؤلفة في لحن العامة .

أما بحثنا هذا فيتجه بالرد على الخفاجي في شرح درّة الغواص في أوهام الخواص.

وما أردناه بمصطلح الانتصاف هو استيفاء حق الحريري مِمَن خَطّأه وادعى أنَّه وهِمَ في آرائه ، والوقوف وسطاً بين المغالين بالتخطئة والمسرفين بقبول استعمالات لا توافق أنظمة العربية وقواعدها المقررة .

وينقسم البحث على مقدمة ومبحثين ، ضم الأول أثر التصحيحات اللغوية في مقاومة لحن العامة ، أما الآخر فتناول الانتصاف للحريري من الخفاجي ، ثم الخاتمة وثبت المصادر والمراجع .

سدّد الله خطانا جميعاً على طريق العلم وخدمة القرآن الكريم ، ولغتنا العربية ، والحمد لله أولاً وآخراً .

المبحث الأول
أثر التصحيحات اللغوية في مقاومة لحن العامة

اتسعت اللغة العربية باتساع أبواب الحياة ، وأثّرَتْ في لغات الشعوب التي دخلت في دين الله ، والتي تأثرت بالفكر العربي الإسلامي وبحضارة الإسلام والعرب.

ولم يرق للحاقدين على العروبة والإسلام أن تظل العربية نقية صافية ،ونهدَ[كل شيء دنا منك فقد نهدَ . ينظر جمهرة اللغة، ابن دريد (321 هـ) 687/2 ، و تهذيب اللغة ، الأزهري (ت 370 هـ) ، 6/ 117] أعداء العقيدة الإسلامية ، وأعداء القرآن ، وأعداء صاحب الرسالة(ε) بحملة عدائية أرادَتْ هدم كلّ شيء بناه الإسلام ، وحفظت أفكاره اللغة ، وكادوا يطمسوها لولا رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوقفوا بوجه المنحرفين ، وانبروا يذودون عن اللغة ويصلحون ما أصابها من هجنة وتحريف ؛ لأن الروح العربية متدفقة ، ولأن النزعة الإسلامية راسخة متينة، فاندفع المخلصون يذودون عن العربية ، ويحيون التراث ليكون معيناً عذباً يرتوي منه الظامئون ، وظلاً ظليلاً تتفيأ به القلوب المؤمنة بالله ووحدة العرب .

والخطأ والصواب في الاستعمال اللغوي من المسائل التي استرعت انتباه الدارسين والباحثين في اللغة العربية ؛ لتنقيتها مما علق بها من شوائب الخطأ والأعراف بعد الفتوحات الاسلامية ، واختلاط العرب بغيرهم من الامم والشعوب التي دخلت في الدين الاسلامي .

قال الزبيدي (ت379 هـ) : ((ولم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر إسلامها وماضي جاهليتها ؛ حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان ، فدخل الناس فيه أفواجا ، وأقبلوا إليه أرسالا ، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة ، واللغات المختلفة، ففشا الفساد في اللغة والعربية ، واستبان منه في الإعراب الذي هو حَلْيُها ، والموضح لمعانيها ، فتفطن لذلك من نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب ، فعظم الإشفاق من فُشُوِّ ذلك وغلبته ، حتى دعاهم الحذرُ من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم إلى أن سببوا الأسباب في تقييدها لمن ضاعت عليه ، وتثقفيها لمن زاغت عنه)) . [طبقات النحويين واللغويين ، الزبيدي (ت 379 هـ) ، 11-12].

فظهور اللحن في الكلام كان من أحد الأسباب التي أدّت الى وضع قواعد النحو العربي ، إذ لم يكن اللحن مقصوراً على لحن اللسان عند المتحدث في مقامات الكلام المختلفة ، بل تجاوز ذلك الى القرآن الكريم نفسه .

ولم يقع اللحن في القراءة من الأعاجم وحدهم بل شاركهم في ذلك مَنْ ولدوا في بيئة عربية ، ونشأوا في أحضان العرب ، وألفوا لحنهم . [ينظر البيان والتبيين ، الجاحظ (ت 255 هـ) ، 91]

واللحن :هو كل انحراف عن اللغة المدونة والمستقرة ، وقد قُسِمَ اللحن على قسمين : جلي وخفي . [ينظر الاتقان في علوم القرآن ، السيوطي (ت 911 هـ) ، 266/1 ، والكليات ،الكفومي (ت1094 هـ) 1/ 797 .]

والجلي: هو لحن الإعراب ، كرفع المنصوب ، ونصب المرفوع ، أو خفض المنصوب أو المرفوع .

أما اللحن الخفي فهو ترك اعطاء الحروف حقها من تجويد لفظها بلا زيادة فيها ولا نقصان ، أي: أنَّ هذا النوع من اللحن لا يعرفه إلا النحارير الماهرون ، وسميّ خفياً ؛ لأنه يخفى على الكثير .

قال أحمد بن فارس(ت395 هـ) :((وَقَدْ كَانَ الناس قديماً يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أَوْ يقرأونه اجتنابَهم بعضَ الذنوب، فأما الآن فقد تجوّزوا حَتَّى أن المحدّث يحدث فليحن. والفقيه يؤلف فيلحن. فإذا نُبها قالا: مَا ندري مَا الإعراب وإنما نحن محدّثون وفقهاء. فهما يسران بما يُساء بِهِ اللبيب)).[الصاحبي في فقه اللغة ، ابن فارس (ت 395 هـ) 11/1]

ويتضح من هذا القول:إنّ اللحن لم يقتصر على العامة فقط ، بل وصل الى الخاصة من الناس، فبلغ اللحن مداه ، واصبح مألوفاً بين الناس في حياتهم العامة ، وتسرب الى التأليف العلمي نفسه ، لذا نشطت في الدراسات اللغوية حركة تنقية اللغة ، مما دفع الكثير من الدارسين الى التأليف في اللحن .[لمزيد من المعلومات عن أهم الكتب المؤلفة في لحن العامة ، ينظر لحن العامة (جمع ودراسة وتحقيق) ، 12 -17] .

فلقد تقدمت اللغة العربية في القرون الأخيرة تقدماً كبيراً ، وكان لخصائصها الحية أثر في هذا التقدم ، فهي لغة الاشتقاق والقياس والمجاز والتوليد ، وهذه سبل واسعة تقضي الى ما فيه خير اللغة وازدهارها ، فبقيت اللغة العربية بنظامها ودلالاتها لغة مثالية لها شخصيتها المتميزة من بين اللغات في العالم ، ولأنَّ من أهم ركائز بناء شخصية الإنسان- لغته - التي يتواصل بها مع ابناء جنسه ويعبر بها عن احاسيسه ، وافكاره ، ويكتب بها تأريخه وتراثه ، ويحفظ بها موروثه العلمي والمعرفي ، تفرض عليه أنْ يتخذ موقفاً أصيلاً وشجاعاً أمام كل تحدّ يريد النيل من اللغة ، ويحاول تشويه صورتها المشرقة .

المبحث الثاني
الانتصاف للحريري من الخفاجي

يُعد كتاب درَّة الغواص من جملة الكتب التي تُعنى بالأخطاء الشائعة في اللغة العربية من جهة استعمال مفرداتها ، إلا أنَّ لهذا الكتاب شروح وحواشٍ ذكرها حاجي خليفة في كشف الظنون ، أشهرها شرح درَّة الغواص في أوهام الخواص لشهاب الدين الخفاجي .

وعلى ما ذُكِر فإنَّ هذه الشروح أُلفت للتنبيه على أوهام الحريري وأغاليطه ، قال الخفاجي في مقدمة شرحه : ((وقد كنت إبان الحداثة مشغوفاً بها، أستنشق من مهاب أنفاس نسيمها شمولاً وقَبولاً، حتى أخذت مفتاح مقفلها، وفتحت أبواب مشكلها، فلما رأيت طعنه على السلف، وعرضَه في سوق الكساد درةً في جوفها صدف،...دعاني الانتصار للسلف إلى تمييز الدر من الصدف)) .[شرح شهاب الدين الخفاجي على درّة الغواص(ت1069 هـ) ، 2-3]

فمن هذا القول نستنتج أنَّ لبعض الدارسين أو المؤلفين وجه في اللغة ، فمنهم من يجيز أو ينكر استعمال هذه اللفظة أو تلك في المعنى اللغوي ، وإنْ كان غيره أفصح منه .

وللحريري مكانة بين أقرانه بل تقدم على أقرانه في معرفة علوم اللغة العربية ومفرداتها ، ولا أدلُ على ذلك من مقاماته التي تُعد كنزاً لغوياً وذخيرة مفردات غنية، فضلاً عن كتاب ملحة الإعراب وشرح الكتاب .[ينظر معجم الأدباء، ياقوت الحموي (ت 626 هـ) 4/ 603 ، وفيات الأعيان ، ابن خلكان (681 هـ) ، 4/ 66 ، وكشف الظنون ، حاجي خليفة (ت1067 هـ) ، 1/ 741]

وسنورد بعض ما شاع عن الحريري في شرح درة الغواص في أوهام الخواص للخفاجي بأنه وهم أو غلط ، وسنرد عليه من امهات الكتب والمعجمات .

*** قال الحريري : فمن أوهامهم الفاضحة وأغلاطهم الواضحة أنهم يقولون: قدِمَ سائر الحاج، واستوفى سائر الخراج ، فيستعملون سائراً بمعنى الجميع ، وهو في كلام العرب بمعنى الباقي ، ومنه قيل لما يبقى في الإناء: سؤر.**[ينظر درّة الغواص ، للحريري (ت 515 هـ) ، 3]

قال الخفاجي في شرح درَّة الغواص: اختلف العلماء في اشتقاق لفظ (سائر) ، فقيل: من السؤر ، وهو ما يبقى في الإناء ، فعينه همزة [شرح شهاب الدين الخفاجي على درة الغواص ، 9] . وهذا مذهب الحريري .

وردَّ الخفاجي هذا الرأي من وجهين:

الأول: أنَّ (السؤر) بمعنى البقية ، والبقية تقتضي الأقل، والسائر يقتضي الأكثر.

الآخر: أنَّهم حذفوا عينه ، كما في قول أبي ذؤيب: [ينظر المقتضب ، المبرِّد (285 هـ) ، 1 / 103]

وغيَّرَ ماءُ المَرْدِ فاها فلَوْنُه كَلَوْنِ النَّؤورِ وَهْيَ أَدْماءُ سَارُها

و (سَارُها) اعتلت بالحذف، ولو كانت عينه همزة لم يجز حذفها .[شرح شهاب الدين الخفاجي على درة الغواص ، 9]

ويمكن الرد على الخفاجي بأنَّ ما ذهب اليه الحريري هو قول الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)[ينظر العين 292/7] ، وابن دريد (ت 321 هـ)[ينظر جمهرة اللغة 1087/2] ، والقالي(ت 356 هـ) [ينظر الأمالي 47/1] ، والأزهري(ت 370هـ)[ينظر تهذيب اللغة 13 / 34] ، والطالقاني(ت 385 هـ) [ينظر المحيط في اللغة 8/ 373] ، وابن سيدة (458 هـ) [ينظر المحكم والمحيط الأعظم 8/ 542] ، والجواليقي (ت 540 هـ)[ينظر شرح أدب الكاتب 17] ، وابن منظور(ت 711 هـ)[ينظر لسان العرب 4/ 339 .]

والفيرزآبادي (ت 817 هـ)[ينظر تاج العروس 11/ 483] : إنَّ اشتقاق (سائر) من السؤر، أي:أنَّ عينه همزة ، وهو ما يبقى في الإناء .

يُقال: أسأر فلان طعامه وشرابه أي: أبقى منه بقية ، وبقية كل شيء سؤرة .

كقول طرفة: [شرح شهاب الدين الخفاجي على درة الغواص 9 ، وينظر تهذيب اللغة ، الأزهري13 / 34]

ورأتني سؤر السيوف يقبضن يمينا.

ويقال للمرأة إذا جاوزت الشباب ولم يعدمها الكبر: إن فيها لسؤراً ، أي : بقية . [ينظر العين 293/7]

وذهب الأزهري بقوله : أسأَرْتُ سُؤْراً وسُؤْرَةً : إذا أبقيْتَها وأفضلتها ، والسائر الباقي ؛ وكأنه من سَئر يَسْأَر فهو سائر ، أي : فَضَلَ .[تهذيب اللغة ، الأزهري 13/ 34 ، وينظر المحيط في اللغة ، الطالقاني (ت 385 هـ) 8/ 327] .

ويرى ابن بري أنَّه لا يلزم من الاشتقاق إلا الملاقاة في أصل المعنى لا المساواة من كل الوجوه ، ولما يلزمه على هذا من الجمع بين اعلالين .[شرح شهاب الدين الخفاجي على درة الغواص 9]

وذكر الشهاب الخفاجي رأياً نسبه الى أبي علي الفارسي أنَّ لفظ (سائر) معتل العين من: سار يسيرُ ، ومعناه: جماعة يسير فيها هذا الاسم ويطلق عليها ، واستشهد بقول الشاعر ابن الرقاع :

وحجراً وزباناً واربد ملقط توفي فليغفر له سائر الذنب . شرح شهاب الدين الخفاجي على درة الغواص 9]

وقول الأخطل: [ديوانه 141 ، ينظر تهذيب اللغة ، الأزهري ،13/ 35 ، ولسان العرب، ابن منظور (ت 711 هـ) 339/4]

وشارِبٍ مربِحٍ بالكاسِ نادَمَني لا بالحصُورِ ولا فيها بسَآرِ

فـ (سَآرِ) رُوي على وجهين : [تهذيب اللغة ، الأزهري ،13/ 35 ، وينظر المحيط في اللغة ،الطالقاني ، 8/ 327 ، ولسان العرب ، ابن منظور، 4/ 340]

أحدها: بوزن سَعّار بالهمز ، ومعناه : أنه لا يُسْئِرُ في الإناء سُؤراً ولكنه يشتَفّه كله، أو بمعنى : ولا فيها بسَوَّارِ أي: بمُعَرْبد ، من سار يَسُور إذا وثب المُعَرْبِدُ عَلَى من يُشَارِبه. والآخر: قول الأزهري: وجائزٌ أن يكون سأر من سَأَرَتْ. [ينظر تهذيب اللغة ، الأزهري 13/ 35]

وجائز أن يكون من أسأَرْتُ كأنه ردّهُ إلى الثلاثي ، كما قالوا : درّاك من أَدْرَكْتُ ، وَجبّار من أَجْبَرْتُ . [ينظر تهذيب اللغة ، الازهري 13/ 35 ، والمحيط في اللغة ، الطالقاني ، 8/ 327 ، ولسان العرب ، ابن منظور ، 4/ 340]

وذكر الخفاجي أنّ (سائر) مختص بالأكثر ، وهذا ما ذكره الحريري مستدلاً بقول النبي (ε) لرجل أسلم وعنده عشر نسوة: (اختر أربعاً منهنّ وفارق سائرهنَ) [ينظر الحاوي الكبير، الماوردي (ت 450 هـ) ، 9/ 283].، أي : مَنْ بقى بعد الأربع اللائي تختارهنَ .[درّة الغواص 3 ، وينظر شرح شهاب الدين الخفاجي على درة الغواص 9]

وقال الحريري أيضاً: ولما وقع (سائر) في هذا الموطن بمعنى الباقي الأكثر منع بعضهم من استعماله بمعنى الباقي الأقل .[درّة الغواص 3]

ويرى الحريري أن الصحيح استعماله في كل باقٍ قل أو كثر؛ لإجماع أهل اللغة على أن معنى الحديث الشريف (إذا شربتم فأسئروا) [ينظر غريب الحديث ، ابو عبيد القاسم بن سلام (ت 224 هـ) ، (ت 293/2 ، والنهاية في غريب الأثر، ابن الأثير (ت 606 هـ) 2/ 327] ، أي: أبقوا في الإناء بقية ماء . لا أن المراد به أن يشرب الأقل ويبقي الأكثر، وإنما

ندب للتأدب بذلك؛ لان الاكثار من المطعم والمشرب منبأةٌ عن النهم وملامةٌ عند العرب . [درّة الغواص 3]

واستدل على أن (سائراً) بمعنى باقٍ بما أنشده سيبويه: [درّة الغواص 3 ، وينظر الكتاب سيبويه (ت180 هـ) ، 1/ 181]

تَرى الثُّورَ فيها مُدخِلَ الظل رأْسَهُ وسائرُه بادٍ إلى الشمس أَجْمَعُ

ويشهد بذلك أيضاً قول الشنفرى: [ينظر الاغاني ، ابو الفرج الأصبهاني (356 هـ) 10/ 188 ، وخزانة الادب ، عبد القادر البغدادي (ت 1093 هـ) 3 / 325] .

ولا تقبروني إن قبري محرمٌ ... عليكم ولكن أبشري أم عامرٍ

إذا احتملت رأسي وفي الرأس أكثري ... وغودر عند الملتقى ثم سائري

وخطّأ ابن الأثير مَنْ رأى أنَّ (سائر) بمعنى الجميع ، ودليله أنّ هذه اللفظة تكررت في الحديث وكله بمعنى باقي الشيء والباقي الفاضل . [ينظر النهاية في غريب الأثر 2/ 327]

أما الفيروز آبادي فقال: والسائر الباقي لا الجميع كما توهم جماعات، أو قد يستعمل له. [ينظر القاموس المحيط 517/1] .

وعلى هذه الآراء فإن ما ذكره الحريري يُعدُ صواباً وليس وهماً كما شاع عنه ، ولو قيل : إنَّ معنى (سائر) كلّ ما بقي لكان عين الصواب .

* قال الحريري:((ويقولون للمتتابع : متواتر ، فيوهمون فيه ؛لأن العرب تقول: جاءت الخيل متتابعة إذا جاء بعضها في إثر بعض بلا فصل ، وجاءت متواترة، إذا تلاحقت وبينها فصل ... ، ومما يؤيد ما ذكرنا من معنى التواتر قوله تعالى:(ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى) (المؤمنون / 44)، ومعلوم ما بين كل رسولين من الفترة وتراخي المدة)) . [درة الغواص 4]

وأيّدَ الخفاجي هذا الرأي ، وقال: ((هذا أصلُ معناه ويشهدُ له الاشتقاق ؛ لأنَّ التواتر أن يؤتى بالشيء وتراً وتراً ، أي منفرداً، فيقتضي الفصل . والتبع يكونُ متبوعاً ففيه اشعار بالاتصال)) . [شرح شهاب الدين الخفاجي على درّة الغواص 15]

وجاء عن بعض الصحابة أنّه قال لـ علي بن أبي طالب (τ): إنَّ عليَّ أياماً من شهر رمضان أيجوز أن أقضيها متفرقة؟ ، قال: اقضها إن شئت متتابعة، وإن شئت متواترة تترى، فقلت: إنّ بعضهم قال: لا تجزئ عنك إلا متتابعة ، فقال: بل تجزئ تترى ؛ لانه عزّ وجل قال: (فعدة من أيام أخر) (البقرة/184 ، 185) ، ولو أراد متتابعة لبيّن التتابع كما قال سبحانه: (فصيام شهرين متتابعين) (النساء/ 92) ، (المجادلة / 4). [درة الغواص 5 ، وينظر مصنف عبد الرزاق 4/ 257 ، وفتح الباري 4/ 189]

وأضاف الخفاجي قوله: إنّه ورد في استعمال العرب وضع كل منهما موضع الآخر .[ينظر شرح شهاب الدين الخفاجي على درّة الغواص 15] مستشهداً بما رُوي عن أبي عُبيدة بن الجرَّاح أنه قال: ((إنَّ الله لَمْ يُرَخِّصْ لَكُمْ في فِطرهِ ، وهو يريد أنْ يشُقَّ عليكم في قَضَائِهِ ؛ إنْ شئْتَ فَواتِرْ ، وإنْ شِئْتَ فَفَرِّقْ)) [شرح درّة الغواص 15 ، وينظر سنن الدارقطني 2/ 192 ، وسنن البيهقي الكبرى 4/ 258] ، وهذا ماذهب اليه الفيروزآبادي بقوله:((والتَّواتُرُ : التَّتابُعُ أو مَعَ فَتَرَاتٍ)). [القاموس المحيط 631/1]

اما أبو عبيد القاسم بن سلام(ت 224 هـ) فسوى بينهما ، ولا شاهد له في الأثر قال: الوَتِيرةُ المداوَمةُ على الشيء ، وهو مأخوذ من التَّواتُر والتَّتابُع .[ينظر غريب الحديث 25/4]

وقال ابن منظور: المُتَواتِرُ الشيء يكون هُنَيْهَةً ثم يجيء الآخر فإذا تتابعت فليست مُتَواتِرَةً وإنما هي مُتَدارِكة ومتتابعة. [لسان العرب 273/5 ، وينظر تاج العروس 14/ 338]

ونقلت معاجم اللغة قول ابن الأَعرابي: تَرى يَتْري إِذا تَراخى في العمل فعمل شيئاً بعد شيء. [ينظر تهذيب اللغة 14/ 220 ، ولسان العرب 273/5 ، و تاج العروس 14/ 338]
أما الأصمعي فقال: واتَرْتُ الخَبَرَ أَتْبَعْتُ وبين الخبرين هُنَيْهَةٌ. [تهذيب اللغة 3/ ، وحجة القراءات 487 93]
وفي حديث أبي هريرة قوله: ((لا بأْس بقضاء رمضان تَتْرى أَي متقطعاً)). [مصنف ابن أبي شيبة 298/2 ، وغريب الحديث 451/2]
وفي حديث آخر قال: ((لا بأْس أَن يُواتِرَ قضاءَ رمضان أَي يُفَرِّقَهُ فيصومَ يوماً ويُفْطِرَ يوماً ولا يلزمه التتابع فيه فيقضيه وِتْراً وِتْراً)) . [النهاية في غريب الأثر 1/ 472 ، وينظر غريب الأثر 2/ 451]
وكل قافية فيها حرف متحرك بين حرفين ساكنين يُقال عنها عند العروضيين: قافية تواتر.
اذن فجملة القول وما عليه أكثر العلماء: إنّ التتابع يكون بدون فصل ، والتواتر بفصل . وهذا ما رآه الحريري .

* قال الحريري: ويقولون: أزف وقت الصلاة ، اشارة إلى تضايقه ومشارفة تصرمه، فيحرفونه عن موضعه،ويعكسون حقيقة المعنى في وضعه ؛ لأن العرب تقول أزف الشئ بمعنى دنا واقترب لا بمعنى حضر ووقع . [درّة الغواص 5] وفي شرح شهاب الدين الخفاجي على درة الغواص ذكر الخفاجي أن العلماء انقسموا على قسمين في بيان معنى (أزف). [ينظر شرح شهاب الدين الخفاجي على درة الغواص 18]
وذكر الخفاجي قول الراغب الاصبهاني(ت 502 هـ) أنَّ معنى قوله تعالى: (أزفت الآزفة) ، أي: دنَتْ القيامة ، والآزفة: القيامة ؛ لقرب وقتها ، لذلك عبّر عنها بالساعة [شرح شهاب الدين الخفاجي على درة الغواص 18 ، وينظر المفردات في غريب القرآن 17] ، وهذا ماذهب اليه الحريري. [ينظر درّة الغواص 5]
ومنهم من يرى أنّ أزف بمعنى ضيق الوقت، يقال: أزف الشخوص ، والأَزْفُ ضيقُ الوقت.[شرح شهاب الدين الخفاجي على درة الغواص 18 ، وينظر المفردات في غريب القرآن 17 ، و اللباب في علوم الكتاب 17/ 28]
وجمع مجاهد وقتادة وابن زيد بين المعنيين ، قيل: أتى أمر الله ، فعبَّر عنها بالماضي تبييناً لقربها وضيق وقتها [شرح شهاب الدين الخفاجي على درة الغواص 5 ، وروح المعاني 58/24]
وأيّد الخفاجي الرأي وقال: وظاهره أنَّه حقيقة في الضيق كالقرب ، وفي الأساس (أزف الرحيل) دنا ، ومصدره الأزوف ، أي: ضِّق. كما يُقال: أمرٌ قريب ومقارب ، وظاهره أنَّه استعمل في الضيق مجازاً.وقولهم:(أزف وقت الصلاة)اشارة الى تضايقه ومشارفة تصرمهِ. [ينظر شرح شهاب الدين الخفاجي على درة الغواص]
ونفى الحريري أن يكون معنى:(أزف الشيء) بمعنى: حضر ووقع ، وانما بمعنى: دنا واقترب . [ينظر درّة الغواص 5]
وقال الطبري [ينظر تفسير الطبري 27 / 81] في تفسير قوله تعالى: (أَزِفَتِ الآزِفَةُ) (النجم / 57) . ، أي: دنت الدانية: وإنما يعني: دنت القيامة القريبة منكم أيها الناس ، يقال منه: أزف رَحِيل فلان ، إذا دنا وقَرُب ، وهذا ما رآه الحريري. [ينظر درّة الغواص 5]
ومنه قول النابغة الذبياني: [ديوانه 105]

أفِدَ الترَحُّلُ غَيرَ أنَّ ركابنا لَمَّا تَزَلْ بِرَحالِنا وكأنْ قَدِ

وقول كعب بن زُهَير: [ينظر ديوانه 88]

بانَ الشَّبابُ وأمْسَى الشَّيبُ قَدْ أزِفا... وَلا أرَى لشَبابٍ ذَاهِبٍ خَلَفَا

و(أزف) في البيتين بمعنى : دنا .

ومما يؤيد رأي الحريري وما اليه ذهب العلماء ما قاله مجاهد وقتادة وابن زيد إنَّ معنى قوله تعالى : (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ) (غافر/18) ، أي: يوم القيامة ، والآزفة : القريبة ، من: أزِفَ الشيء إذا قَرُبَ . وعبر عنه بالقرب تخويفاً ، والتقدير: يوم الساعة الآزفة، أو الطامة الآزفة .[ينظر المحرر الوجيز ، ابن عطية (ت 546 هـ)، 552/4 ، والبحر المحيط 438/7]

* قال الحريري: ويقولون لمن يأخذ الشيء بقوة وغلظة: قد تغشرم ، وهو متغشرم ، والصواب أن يقال فيه : تغشمر ، وهو متغشمر ، بتقديم الميم على الراء .واستشهد بقول الشاعر:

إن لها لسائقاً عَشنزرا إذا ونَين ساعةً تغشمرا

ومنه أيضاً ما جاء في كلام العرب: (قد تغشمر السيل)، إذا أقبل بشدة وجرى بحدة. [ينظر درة الغواص 6]

وقال الخفاجي: وما ذكره من التخطئة – أي: الحريري – خالفه فيه بعضهم ، وما في الحواشي من أنَّ القلب معروف في كلامهم ، ومن هذا قولهم: تجحشر وتحجشر ، إذا غلظ ، واجتمع خلقه . [ينظر شرح شهاب الدين الخفاجي على درّة الغواص 20]

وقال ايضاً: والقلب لازم لبعض الألسنة ، كما في الألثغ مما يتعجب منه ، فإنَّ القلب غير مقيس ، واللثغة لاتثبت بها اللغة . [ينظر شرح شهاب الدين الخفاجي على درّة الغواص 20-21]

ولابدَّ من القول إنَّ ما ذهب اليه الحريري هو رأي الخليل [ينظر العين 1/ 460]، والأزهري [ينظر تهذيب اللغة 8/ 193] ، وابن منظور [ينظر لسان العرب 5/ 23] ، واستشهد الأخير بحديث جبر بن حبيب قال: قاتله الله لقد تغشمرها ، أي: أخذها بجفاء وعنف . [ينظر الفائق 3/ 68 ، والنهاية في غريب الأثر 3/ 369]

أما لفظ (غشرم) وما ذكره الخفاجي بمعنى الشدة والغلظة فلم أجد إلا الطالقاني [ينظر المحيط في اللغة 158/5] قد ذكره بهذا المعنى عند معرض حديثه عن(غَشْمَرَ)، وذكره ابن منظور بقوله: تغشرّم البيد بمعنى ركبها . [ينظر لسان العرب 12/ 438]

الخاتمة

نتاول هذا البحث بالدراسة الوقوف على المسائل اللغوية ، وتصحيح الفكرة الشائعة عن وهم الحريري في كتابه درّة الغواص في أوهام الخواص ، وخلصت الدراسة الى جملة من النتائج العلمية ، ومن أهمها .

* اللحن مصطلح تعارف عليه الناس بعد ظهور الاسلام ، واختلاط العرب بالأعاجم .
* اهتم الحريري بمبدأ تنقية اللغة من الأخطاء اللغوية ، والتوجيه الى فصيح الكلام ؛ لأنَّه رفض قانون تطور اللغة .
* إنَّ اتفاق العلماء واختلافهم يرجع الى العصر الذي عاش فيه هذا العالم أو ذاك .
* تبيّن احالات البحث أنّ الحريري وافق العلماء الذين سبقوه وعاصروه ، ومَن جاء بعده بزمن قصير .
* تقدم اللغة العربية في القرون الأخيرة ؛ لأنها لغة الاشتقاق والقياس والمجاز والتوليد ، دعى المتأخرين الى استعمال الفاظ ومصطلحات جديدة .
* تصحيح فكرة الوهم الشائعة على الحريري ؛ فهل يجوز ما وهِمَ به الحريري هو نفسه الذي وهم به الخليل والأزهري وابن فارس ، وغيرهم ممن وافقهم الحريري؟ .

المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن ، تحقيق: سعيد المندوب ، دار الفكر – لبنان ، ط1 ، 1996 م .
- الأغاني ، الأصبهاني: ابو الفرج (ت 356 هـ) ، تحقيق: علي مهنا وسمير جابر ، دار الفكر للطباعة والنشر – لبنان .
- الأمالي في لغة العرب ، القالي: ابو علي اسماعيل بن القاسم (ت 356 هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1978م .
- البرهان في أصول الفقه ، الجويني:عبد الملك بن عبد الله بن يوسف (ت 478 هـ) ، تحقيق: د. عبد العظيم محمود الديب ، دار الوفاء - مصر ، ط4 ، 1418هـ .
- البيان والتبيين ، الجاحظ: ابو عثمان عمرو بن بحر (ت 255هـ) ، تحقيق: فوزي عطوي ، دار صعب – بيروت .
- تفسير البحر المحيط ، ابو حيان: محمد بن يوسف (745 هـ) ، تحقيق: عادل احمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط1 ، 2001 م.
- تهذيب اللغة ، الأزهري: أبو منصور محمد بن أحمد (ت 370هـ) ، تحقيق : محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ط1 ، 2001م .
- جمهرة اللغة ، ابن دريد : ابو بكر محمد بن الحسن (ت 321 هـ) ، تحقيق: رمزي بعلبكي ، ط1 .
- الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي ، الماوردي: علي بن محمد بن حبيب (ت 450 هـ) ، تحقيق: علي محمد عوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1999 م .
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، البغدادي : عبد القادر بن عمر (ت 1093 هـ) ، تحقيق: محمد نبيل طريفي ، وأميل بديع اليعقوب ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط1 ، 1998 م.
- ديوان الأخطل ، شرحه وصنّف قوافيه وقدّم له : مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية – بيروت ، 1994 م .
- ديوان كعب بن زهير ، شرح ودراسة : د. مفيد قميحة ، دار الشواف للطباعة والنشر – المملكة العربية السعودية ، ط1 ، 1989م .

- ديوان النابغة الذبياني ، شرح وتقديم :عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط3 ، 1996 م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والبيع المثاني ، الآلوسي : ابو الفضل شهاب الدين السيد محمود (1270 هـ) دار احياء التراث العربي، بيروت .
- سنن البيهقي الكبرى ، البيهقي: ابو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى (ت 458 هـ) ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ، دار الباز ، مكة المكرمة ، 1994م .
- سنن الدارقطني ، الدارقطني: ابو الحسن علي بن همر البغدادي (ت 385 هـ) ، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني ، دار المعرفة – بيروت ، 1966 م .
- شرح أدب الكاتب ، الجواليقي: ابو منصور موهوب بن أحمد (ت 540 هـ) .
- الصاحبي في فقه اللغة ، ابن فارس: أبو الحسين أحمد (ت 395 هـ) .
- طبقات النحويين واللغويين ، الزبيدي: ابو بكر محمد بن الحسن (379 هـ) ، تحقيق:محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، ط2 ، 1974م .
- العين ، الفراهيدي: الخليل بن أحمد (ت 175 هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي و د إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال .
- غريب الحديث ، الهروي: ابو عبيد القاسم بن سلام (ت 224 هـ) ، تحقيق: محمد عبد المعيد خان ، دار الكتاب العربي – بيروت ، 1296 هـ .
- الفائق في غريب الحديث ، الزمخشري: محمود بن عمر (ت 538 هـ) ، تحقيق: محمد علي البجاوي ، ومحمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعرفة – لبنان ، ط2 .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، العسقلاني : ابو الفضل أحمد بن علي بن حجر (ت 852 هـ) ، تحقيق: محيي الدين الخطيب ، دار المعرفة – بيروت .
- القاموس المحيط ، الفيروز آبادي: محمد بن يعقوب (ت 817 هـ) ، مؤسسة الرسالة – بيروت .
- الكتاب ، سيبويه: أبو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر(180هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل - بيروت ، ط1 .
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ،حاجي خليفة: مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي (ت1067 هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت ، 1992.
- الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) ، الكفومي: ابو البقاء أيوب بن موسى الحسيني (ت 1094 هـ) ، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، 1998 م .
- لحن العامة ، السجستاني : ابو حاتم سهل بن محمد بن عثمان (ت 255 هـ) ، جمع وتحقيق ودراسة : د. فائزة عباس حميدي الإدريسي ، دار نجيبويه للطباعة والنشر – مصر .
- اللباب في علوم الكتاب ، ابن عادل: ابو حفص عمر بن علي الدمشقي ،تحقيق:عادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط1 ، 1998م .
- لسان العرب ، ابن منظور: محمد بن مكرم (ت711 هـ) ، دار صادر ، ط1 .
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ابن عطية : ابو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية (ت546 هـ) ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية – لبنان ، ط1 ، 1993 م .

- المحكم والمحيط الأعظم ، ابن سيدة : ابو الحسن علي بن اسماعيل (ت 458 هـ) ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط1 ، 2000م .
- المحيط في اللغة ، الطالقاني: ابو القاسم اسماعيل بن عباد بن العباس (ت 385 هـ) ، تحقيق: محمد حسين آل ياسين ، عالم الكتب – بيروت ، ط1 ، 1994م .
- مصنّف عبد الرزاق ، الصنعاني ابو بكر عبد الرزاق بن همام (ت 211 هـ) ، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي ، المكتب الاسلامي ، بيروت ، ط2 ، 1403 هـ .
- المصنف في الأحاديث والآثار ، ابن ابي شيبة : ابو بكر عبد الله بن محمد ، تحقيق: كمال يوسف الحوت ، مكتبة الرشد – الرياض ، ط1 ، 1409 هـ .
- معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، ياقوت الحموي: أبو عبد الله بن عبد الله الرومي (ت 626 هـ) ، دار الكتب العلمية - بيروت ،ط1 ، 1991م .
- المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني: ابو القاسم الحسين بن محمد (ت 502 هـ) ، تحقيق: محمد سيد كيلان ، دار المعرفة – لبنان .
- المقتضب ، المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد (ت 285 هـ) ، تحقيق : محمد عبد الخالق عظيمة ، عالم الكتب – بيروت.
- النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير: ابو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت 606 هـ) ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي ، المكتبة العلمية ، بيروت ، 1979 م .
- وفيات الأعيان و انباء أبناء الزمان ، ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681هـ)، تحقيق : احسان عباس ، دار الثقافة - لبنان .